الثقافة وأثرها في بناء الدول

الأستاذ الدكتور/ عامر يس النجار

الأستاذ بجامعة قناة السويس

مصر

الثقافة في اللغة تعني: الفطنة والحذاقة وسرعة التعلم والفهم، يقال: ثقف الرجل ثقفًا وثقافة؛ أي صار حاذقًا فطنًا، وثقف الرماح؛ أي سوَّاها وقوّم اعوجاجها" [1].

وفي الاصطلاح عَرّفها "تايلور" بأنها: "ذلك الكل المركب الذي يتضمن المعرفة، والعقيدة، والفن، والقانون، والأخلاق، والعادات، والتقاليد، وغيرها من القدرات التي يتحصل عليها الإنسان كعضو في جماعة" [2].

أولاً: تعريف الثقافة ومكوناتها:

إن التعريف الشامل للثقافة يبين لنا أنها: الحياة الكلية للمجتمع بجوانبها الفكرية والمادية، وهي تشمل مجموعة الأفكار، والقيم، والمعتقدات، والتقاليد، والعادات، والأخلاق، وطرق التفكير، والفن، والأدب، ووسائل الاتصال والانتقال، وكل ما توارثه الإنسان.

مكونات الثقافة [3]:

١. المكونات المادية: وهي كل ما يستعمله الإنسان في حياته اليومية من أثاث، ومسكن، وملبس، ومبانٍ وغيرها.

٢- المكونات الفكرية: وهي تشتمل على اللغة، والفن، والدين، والعلم، وغيرها.

٣- المكونات الاجتماعية: وهي البناء الاجتماعي، وهو هيكل المجموعة الاجتماعية من الناس .

ثانيًا : مظاهر الثقافة وفوائدها :

مظاهر الثقافة عديدة، منها : المظاهر المادية، والمعنوية، والاجتماعية، والرمزية، والنفسية، وثقافة أي مجتمع مدينة لتراثه وتاريخه، وكذا عاداته وتقاليده، كما أَنَّ الفكر الديني يؤثر في ثقافة المجتمع.

من فوائد الثقافة[٤]:

١- تكسب أفراد المجتمع الشعور بالوَحْدة، وتهيئ لهم سبل العيش والعمل دون إعاقة واضطراب .

٢- تمد الأفراد بمجموعة من الأنماط السلوكية فيما يتعلق بإشباع حاجاتهم البيولوجية من مأكل، ومشرب، وملبس، ليحافظوا على بقائهم واستمرارهم.

٣- تمدهم بمجموعة القوانين والأنظمة التي تتيح لهم سبل التعاون والتكيف مع المواقف الحياتية، وتيسر سبل التفاعل الاجتماعي، دون أن يحدث هناك نوع من الصراع أو الاضطراب.

٤- تقدم للفرد مجموعة من المشكلات التي أوجدت لها الحلول المناسبة؛ وبذلك تُوفر عليه الجهد والوقت في البحث عن حلول لتلك المشكلات .

٥- تنمي لدى الفرد شعورًا بالانتماء أو الولاء؛ فتربطه بمجتمعه رابطة الشعور الواحد.

والثقافة هي قوام وجود الإنسان، وهي مساوية له، وإن وضعه على هذا الكوكب لم يتحدد إلا بها؛ فهي فاصل نوعي بين الإنسان وبين سائر الأحياء[٥]، كما أنها تعبر عن عادات وتقاليد المجتمعات، حيث تميزها عن بعضها البعض، كما تعتبر عاملاً مهمًّا للتأثير في المجتمعات للإبداع والتنمية.

ثالثًا : الثقافة وبناء الفرد والمجتمع :

يقول الأستاذ الدكتور/ محمد مختار جمعة: "لا شك أن الإنسان يتحرك في الحياة من منطلق خبرته وثقافته، وأن ثقافة الإنسان تؤثر تأثيرًا بالغًا في ضبط سلوكه وتصرفاته، وعلاقته الأسرية والمجتمعية والإنسانية، ومستوى أدائه لعمله وإتقانه له، ودرجة وطنيته، وإحساسه بالمخاطر التي تحيط بوطنه، وأثر العلاقات والتوازنات الدولية على المصالح الوطنية، ومدى تأثره بها، وتأثيره فيها، وكذلك مستوى علاقته وتعايشه مع الآخرين، ومن هنا لم يعد الاهتمام بالثقافة والتكوين الثقافي للفرد والمجتمع تَرفًا أو أمرًا ثانويًّا، أو من نافلة القول أو العمل، إنما هو أمر في صميم المصلحة الوطنية. ويضيف الدكتور / محمد مختار جمعة : "إننا لا نبالغ إذا قلنا : إن المصلحة الوطنية لا يتم تحققها بالكامل دون إطار أو وعاء ثقافي مدروس ومتكامل، وإن مؤسسات عديدة تسهم في هذا التكوين، من أهمها : الأسرة، والمدرسة، والمسجد، والجامعة، ومراكز الشباب، والإعلام مقروءًا ومسموعًا ومرئيًا، وصارت مواقع التواصل الاجتماعي والإلكتروني أحد عوامل وروافد تشكيل الوعي الثقافي للأفراد والمجتمعات"[٦] .

أثر الثقافة في بناء الشخصية:

يقول الأستاذ معتصم زكي: "هناك علاقة بين ثقافة المجتمع وشخصية المواطن الذي يعيش في إطاره، كما أن المواطن يولد داخل مجتمع ما، فإنه يولد أيضًا داخل ثقافة خاصة تشكل شخصيته، فالثقافة هي الإطار الأساس والوسط الذي تنمو فيه الشخصية، وهي التي تؤثر في أفكاره واتجاهاته وقيمه ومعلوماته ومهاراته وخبراته، فمثلاً : تؤثر الثقافة في الناحية العقلية للشخصية، فالمواطن الذي يعيش في جماعة تسود في ثقافتها العقائد الدينية تنشأ عقليته وأفكاره متأثرة بذلك، كما أن المواطن الذي يعيش في جماعة تسود في ثقافتها الخرافات الثقافية تنشأ عقليته وأفكاره متأثرة بذلك أيضًا، وهكذا فإن ثقافة المجتمع تتدخل في مضمون أفكار الأفراد، ومعتقداتهم، وآمالهم، ومخاوفهم، وقيمهم".

ويضيف الأستاذ معتصم زكى عن أثر الثقافة في الناحية الخلقية، فيقول: "كل ثقافة

تحتوي على تيار أخلاقي خاص بها، ينساق فيه المواطن متأثرًا بالمعايير الأخلاقية السائدة من ناحية الخير والشر، والحق والباطل، والصواب والخطأ"[٧].

أثر الثقافة في بناء الدول :

إن عوامل بناء الدول عوامل كثيرة، ومن هذه العوامل الترابط والاجتماع، فاتباع الصراط المستقيم، والوحدة الحقة، والابتعاد عن الفرقة والاختلاف، من أهم عوامل بناء الأمم، يقول تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٨]، وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾[٩]. أيضًا من عوامل القوة في بناء الأمم: العمل الجاد بقوة وإخلاص، يقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[١٠] ، وقال عز من قائل: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١١].

وحتى يكون الإنسان مثقفًا ثقافة واسعة؛ فعليه تغذية العقل بمختلف ألوان المعرفة، وعليه أن يتزود بالمعرفة الصحيحة، وإثراء فكره بكل ما هو جديد ومفيد.

وينبغي أن ندرك أن هناك فرقًا شاسعًا وبونًا شديدًا بين التعليم والثقافة ، فالتعليم دراسة لمناهج معينة، لكن الثقافة تعني إضافة معلومات في سائر مجالات المعرفة، فالثقافة سلوك تعليمي يحصل عليه الإنسان من خلال اللغة، والقيم، والأفكار، والأخلاق، والعادات، وأنماط السلوك.

والعلاقة بين الثقافة والفرد علاقة وثيقة، حيث إن الثقافة تؤثر على شخصية الإنسان ، وكذلك الإنسان يؤثر في ثقافة مجتمعه، ومن هنا تبرز وظائف الثقافة الاجتماعية وما تحققه بالنسبة لحياة المجتمع من أهداف ووظائف أساسية، فالثقافة وسيلة للتماسك الاجتماعي؛ إذ إن أعضاء المجتمع يشتركون في الكثير من القيم والعادات والآمال، والقواعد والمعايير ، كما يشتركون في اللغة التي هي أداة الاتصال والتفاهم، ومن هنا تكسب الثقافة أفراد المجتمع

صفة التشابه، وتضمن إطارًا عامًّا للسلوك الاجتماعي، هذا الإطار الذي يحفظ ما نسميه بالتماسك الاجتماعي، والوحدة الثقافية المهمة جدًّا للمجتمع، فهو يوفر صور السلوك والتفكير والمشاعر التي ينبغي أن يقوم عليها؛ مما يؤدي إلى تنمية شعور الفرد بالانتماء للمجتمع الذي يعيش فيه، أيضًا توفر الثقافة للإنسان وسائل إشباع حاجاته البيولوجية والاجتماعية، ويتوقف وجود سمة ثقافية أو نمط ثقافي معين على القدرة على إرضاء تلك الحاجات، والإخفاق المستمر لنمط ثقافي في إرضاء هذه الحاجات قد يؤدي إلى الإخفاق النهائي لذلك النمط [١٢].

كذلك فإن الثقافة تخلق حاجات متعددة للفرد وتمده بوسائل إشباعها، فالاهتمامات الأخلاقية والجمالية تخلقها الثقافة، ثم تهيئ للفرد وسائل إشباعها بالطرق التي ترضى عنها الثقافة، وإن المثقف له دور كبير في الارتقاء بمجتمعه، والمثقف الحقيقي هو الذي يملك التنوع في معارفه، وينبغي أن نعلم أن الثقافة عملية متجردة دائمًا، والبنية الثقافية ينبغي أن تتسم بالإبداع والنقد والابتكار والتجديد، فالثقافة مساوية للإنسان، فهي جوهره الأصيل، وبها تميز الإنسان عن الحيوان، وإن ثقافتنا هي ثقافة الروح وثقافة العقل وثقافة الأخلاق وثقافة الدين، وهي ثقافة تحقق الحاجات المادية والروحية والنفسية للإنسان، وكنتيجة لكل ذلك ، فالعقل المستنير والوعي المطابق يحفزان الهمم لفهم التراث على ضوء مشكلات العصر، وذلك هو السبيل إلى التجدد الذاتي.

المثقف الحقيقي :

والمثقف الحق هو المثقف العضوي الذي وصفه جرامشي بأنه النموذج الإيجابي للمثقف: " المثقف هو الذي يشارك بنشاط في المجتمع من أجل التغيير نحو الأفضل ، اعتمادًا على القراءة الموضوعية للواقع، وتحكيم الضمير في المواقف التي يجب عليه اتخاذها ، شجاعٌ في إعلان هذه المواقف، والدفاع عنها، ولمواجهة مخططات أعدائنا لابد لنا من وحدة الصف، يقول تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[١٣]. ويقول عز من قائل : ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [١٤].

وإذا كانت الثقافة ذات أثر كبير في بناء الأفراد؛ فإن هؤلاء الأفراد هم من يشكلون في

مجموعهم عصب بناء الدولة، ومن ثمة يظهر أثر الثقافة في بناء الدول.

ومن أبرز عوامل بناء الدول من العوامل الثقافية: قوة العلم، حيث إن قيمة الأمم الآن تقاس بما لديها من علماء يعملون لخدمة أوطانهم ، بل خدمة الإنسانية بما لديهم من عطاء علمي متميز ، وإن أمتنا في حاجة إلى إخراج جيل من شباب العلماء الناهض يستطيع إفادة أمته بما يقدمه من أبحاث علمية دقيقة متميزة، وليتذكر دائمًا شباب الباحثين أنهم إن لم يزيدوا بعلمهم على الدنيا شيئًا؛ فهم زائدون عليها، هكذا نرى أن العلم من أهم العوامل الثقافية لبناء الدول .

الهوامش :

(١) انظر: مختار الصحاح للرازي، ولسان العرب لابن منظور، مادة (ثقف).

(٢) انظر : د/ مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، ط دار الكتاب العربي بمصر، ص١٨٩.

(٣) صناعة الثقافة خصائصها ومكوناتها وفوائدها، د/ حنا عيسى، مقال منشور في صحيفة" دنيا الوطن" في ٢٠١٦/٨/٢١م .

(٤) السابق نفسه.

(٥) د/ محيي الدين صابر، مجلة الثقافة العربية العدد ١٥/ ١٩٨٢م.

(٦) أ.د/ محمد مختار جمعة، دور الثقافة في بناء الفرد والمجتمع، مقال منشور بموقع(أوقاف أون لاين) في ٢٠١٣/١١/٨م.

(٧) معتصم زكي ، أثر الثقافة في بناء الشخصية، مقال بصحيفة(المدى) العراقية في ٢٠١٤/٨/٢٥م .

(٨) الأنعام : ١٥٣.

(٩) الأنبياء: ٩٢.

(١٠) الملك: ١٥ .

(١١) الجمعة: ١٠.

(١٢) د/ عبد الله الرشدان، علم اجتماع التربية، دار الشروق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م، ص ٣٣ وما بعدها .

(١٣) آل عمران : ١٠٣ .

(١٤) الأنفال : ٤٦ .